مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
Available online at https://www. asjp. cerist. dz/en/PresentationRevue/65

رت م د: 1112-685x | المجلد: 16 / العدد: 01 / جـوان 2023
رت م د إ: 2588-2236 | ص ص: 476 ـ 489

آليات الخطاب الحجاجي في نوادر الطفيليين

The mechanisms discourse of argumentative in the anecdotes of intruders

السبـتي سلـطاني *

جامعة بـاجي مختـار

عنابـة / الجزائـر

Sebti.soltani@gmail.com

تاريخ الارسال: 2022/10/21 تاريخ القبول: 2023/05/14 تاريخ النشر: 2023/06/08

الملخص:

شكلت نوادر المتطفلين ظاهرة فنية واجتماعية استرعت اهتمام الدارسين قديما وحديثا بما مثلته من صور تعكس البيئة الاجتماعية والثقافية والفنية التي نشأت فيها، فكان لها الأثر الكبير على الصعيد الأدبي عبر مختلف تجلياته سواء الشعري أو السردي.

وللوقوف على بعض تمثلات آليات الحجاج في أدب التطفيل تأتي هذه الورقة البحثية للكشف عن أهم وسائل الخطاب الحجاجي عند الطفيليين على اعتبار أنّ طرفي العملية الحجاجية في هذا النمط من الإبداع الأدبي هما صاحب الوليمة الذي يمثل سلطة المنع والرفض والطفيلي الذي يعمد إلى توظيف كافة وسائل الحجاج لإقناع صاحب الوليمة والتأثير فيه من أجل تحقيق الهدف المتمثل في حضور الوليمة.

الكلمـات المفتاحيـة: آليات، الحجاج، نوادر، الخطاب.

Abstract:

The anecdotes of the intruders were an artistic and social phenomenon that drew the attention of scholars, ancient and modern, with the images it represented that reflect the social, cultural and artistic environment in which it arose, and had a great impact on the literary level through its various manifestations, whether poetic or narrative

In order to identify some representations of the mechanisms of argumentation in the literature of parasites, this research paper comes to reveal the most important means of argumentative discourse among the parasites, given that the two sides of the argumentative process in this type of literary

* المؤلف المرسل.

creativity are the owner of the feast, who represents the authority of prevention and rejection.
Key words: Mechanisms, Argumentation, Intruders, Discourse.

مقدمـــة

يشكّل الخطاب الحجاجي في النص النثري أحد أبرز قضايا الدرس النقدي التداولي الحديث الذي يروم البحث في تجليات العلاقة بين طرفي العملية التواصلية والتي تنبني على سعي الباث إلى إقناع المتلقي وتحويل وجهة نظره تجاه موضوع ما عبر دحض الأفكار المسبقة التي كان يتبناها بخصوص هذا الموضوع، ومن ثمّة يأتي الخطاب الحجاجي بآلياته ووسائله من أجل دفع المتلقي لتغيير رأيه والإيمان بالرأي المعروض عليه من قبل المحاجج.

وفي هذا السياق تأتي هذه الورقة البحثية لتدرس موضوع آليات الخطاب الحجاجي في أدب التطفيل من عبر الوقوف عند بعض النماذج من نوادر المتطفلين الذين اشتهروا في العصر العباسي خاصة، كي تجيب عن مجموعة من التساؤلات المعرفية نحو ما هي الآليات الحجاجيـة التي وظّفهـا الطفيليـون لإقناع البوابين بالسماح لهم بالولوج وحضور المآدب؟ ومـا مدى قـدرة هذه الآليـات على التأثـير في البوابـين باعتبارهم يمثلون سلطة معارضة لرغبة الطفيليين؟

ونهدف من خلال هذه الدراسة إلى تحديد أبرز الآليات التي وظّفها الطفيليون في سبيل تجاوز سلطة المنع والحرمان التي يمثلها عادة البوّاب، ولتحقيق هذه الغاية من الدراسة اعتمدنا المنهج التداولي الذي يدرس اللغة أثناء الاستعمال، أي البحث عن دور اللغة في العملية الإقناعية بعدما تتحول من وسيلة للتواصل إلى وسيلة للإقناع والتأثير، حيث يمكّننا هذا المنهج من تأويل الخطاب أثناء العملية التواصلية بين طرفيها.

I. مفهوم الحجاج لغة واصطلاحا

1. الحجـــاج لغـــة

تشترك المعاجم اللغوية العربية الأساسية في تعريف متقارب للفظ الحجاج، وتكاد تلتقي في تعريف لغوي موحد يختزلها لسان العرب لـ ابن منظور بالقول: «...يقال حاججّته أحاجّه حجاجًا حتىّ حاججته أي غلبته بالحجج التّي أدليت بها...» [1] و «الحجّة البرهان وقيل الحجّة ما دافع به الخصم عن رأيه...» [2]

أي أنّ أغلب المعاجم العربية تتفق على أنّ الحجاج من مادة (ح ج ج) والتي تعني البرهان والدفع بالحجة لغلبة الخصوم في أيّ مجال من مجالات الحياة.

2. الحجـــاج اصطلاحـــا

هو مجال غني من مجالات التداولية يشترك مع العديد من العلوم الأخرى يعدّ ضمن الحقل التداولي، لكنه انبثق من حقل المنطق و البلاغة الفلسفية يرتبط مفهومه بالفعل، وهو بحث من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء وضع ما، يقوم على صناعة الجدل والخطابة، بل إنّ من الدارسين المحدثين من عدّه خطابة جديدة، لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة، ولتوضيح مفهوم الحجاج (Argumentation) ينبغي مقارنته بمفهوم البرهنة (Démonstration) أو الاستدلال المنطقي «...فالخطاب الطبيعي ليس خطابا برهانيا بالمعنى الدقيق للكلمة فهو لا يمدّ براهين وأدلة المنطق ولا يتبع مبادئ الاستنتاج المنطقي.»[3]

وانطلاقا مما تقدم نستنتج أن الخطاب العادي هو خطاب خال من البرهنة طالما أن ليس بحاجة إلى إقناع المتلقي بل مجرد تحقيق مبادئ العملية التواصلية لا أكثر ولا أقل، ومن ثمّ يكون على الباث أن يعتمد معجما لغويا بسيطا ومباشرا على عكس الخطاب الحجاجي الذي يضطر فيـــه البـــاث إلى توظيف كافـــة الآليـــات العقليـــة سواء المنطقيـــة أم شبه المنطقية لتحقيق الغاية من العملية التواصلية في هذا النمط من الخطاب، وعليه يكون التمييز بين الخطاب الطبيعي والخطاب الحجاجي انطلاقا مما يحتويه كل نمط من وسائل وآليات حجاجية أو خلوه منها.

II. مفهوم التطفيل لغة واصطلاحا

بعد تحديدنا لمفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح، نأتي إلى تحديد دلالة التطفل أو التطفيل ثم نتطرق بعد ذلك إلى أدب التطفيل وأهم الخصائص المميزة لهذا الخطاب الأدبي فمن هو الطفيلي؟ وما هي أبرز الصفات التي يتصف بها؟

1. التطفيل لغـــة

عرفه ابن منظور بقوله: «الطِّفْلُ: البَنان الرَّخْص. المحكم: الطَّفْل، بالفتح، الرَّخْص الناعم، والجمع طِفالٌ وطُفول؛ قال عمرو بن قَمِيئة.

إلى كَفَلٍ مِثْلِ دِعْصِ النَّقا ... وكَفٍّ تُقَلِّبُ بِيضاً طِفالا

وقال ابن هَرْمة:

مَتى ما يَغْفُلِ الواشون، تومِئْ ...بأَطْرافٍ مُنَعَّمةٍ طُفول

والأُنثى طَفْلة؛ قال الأَعشى:

رَخْصَةٌ طَفْلَةُ الأَنامل، تَرْتَبْ ...بُ سُخاماً تَكُفُّه بخِلال

وقد طَفُل طَفالةً وطُفولةً. ويقال: جارية طَفْلةٌ إِذا كانت رَخْصةً. والطِّفْلُ والطِّفْلة: الصغيران.

والطِّفْل: الصغير من كل شيء بَيِّن الطَّفَل والطَّفالة والطُّفولة والطُّفولية، ولا فِعْل له؛ استعمله صخر الغَيّ في الوَعِل فقال:

بها كان طِفْلاً، ثم أَسدَسَ واستَوى...فأَصْبَح لِهْماً في لُهوم قَراهِب »[4]

فالتطفل لغة من الطفل وهو الصغير من كل شيء، ولعل ارتباط دلالة سلوك التطفل بدلالة الطفل الصغير نابع من الاشتراك في دلالة الصغر، وعد تحمل المسؤولية، فالمتطفل تواكلي، يعتمد على غيره في تدبير شؤون طعامه، وهو شأن الطفل الذي يعوله أهله وذووه، غير أن المتطفل يوظف الذكاء والحيلة في سبيل تحصيل طعامه.

2. التطفيل اصطلاحـا

بعد أن حددنا المدلول اللغوي للتطفيل حري بنا البحث في الدلالة الاصطلاحية لهذا المصطلح الذي شاع بين الناس في العصر العباسي بشكل كبير، فماهي الدلالة الاصطلاحية للتطفيل؟

تتعدد الدلالات الاصطلاحية لمفهوم التطفيل غير أنها تشترك في معنى الاحتيال على الناس من أجل حضور مأدبة الطعام والنيل منها «فالطفيلي هو الشخص الذي يتعرض لطعام الآخرين من غير أن يدعى له»[5]، وهو أيضا ذلك: «الداخل على القوم من غير أن يدعى، مأخوذ من الطَّفَلِ، وهو إقبال الليل على النهار بظلمته وأرادوا أنّ أمره يظلم على القوم، فلا يدرون من دعاه، ولا كيف دخل إليهم»[6] ويعنون بذلك أنّ الأمر اختلط على أهل الوليمة فصاروا لا يعلمون من دعا الطفيلي إلى وليمتهم، فلا يدرك حقيقته أحد، وهناك من ربط مفهوم التطفل باسم شخص من الكوفة «يقال له طفيل من غطفان كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها، فكان يقال له طفيل الأعراس والعرائس»[7]

غير أنه مهما كانت مبررات سبب تسمية هذا السلوك الاجتماعي بالتطفل فإن فعل التطفل يرتبط ارتباطا وثيقا بالطعام والولائم، وبالتالي فإن الطفيلي هو ذلك الشخص الذي يحضر ولائم القوم من دون دعوتهم له، مستعملا في ذلك شتى الحيل من أجل التمكن من الدخول إلى محل الطعام ومشاركة أهله طعامهم دون استئذان أو سابق معرفة ومن أشهر الطفيليين الذين أوردتهم كتب التراث نجد: بنان الطفيلي وأشعب وابن دراج وغيرهم.

ولعل من أطرف ما نصح به ابن دراج رفقاءه في التطفل قوله: «لا يهولنكم إغلاق الباب، ولا شدة الحجاب وسوء الجواب وعبوس البواب ولا تحذير الغراب ولا منابذة الألقاب، فإن ذلك صائر بكم إلى محمود النوال، ومغن لكم عن ذل السؤال، واحتملوا اللكزة الموهنة، واللطمة المزمنة، في جنب الظفر بالبغية، والدرك للأمنية.....» [8]

فمجتمع الطفيليين مجتمع تحكمه العديد من الأعراف والتقاليد التي وضعها سادة هذا المذهب في الحياة ليسير عليه المريدون، ولتحقيق غاية الطفيلي لا يجد غضاضة في إراقة ما وجهه عند من يقف بباب أهل الوليمة، المهم بالنسبة للطفيلي الغاية تبرر الوسيلة.

III. الآليات الحجاجية في نوادر التطفيل

تتعدد الآليات الحجاجية في أدب التطفيل منها ما هو نقلي ومنها ما هو عقلي، فالحجج النقلية ترتبط ارتباطا وثيقا بالوسائل الإقناعية المستمدة من الدين بالدرجة الأولى على اعتبار ما لهذه الحجج من قوة في الإقناع والتأثير، ومثال ذلك «أنّ الطفيلي بنان جاء إلى وليمة وأغلق الباب دونه، فاكترى سلما ووضعه على حائط الرجل وتسوَّر، فأشرف على عيال الرجل وبناته، فقال له الرجل: يا هذا أما تخاف الله؟ رأيت أهلي وبناتي» [9]. فقال يا شيخ:

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [10]

فذكاء الطفيلي دفعه إلى توظيف نص قرآني وهو الآية 79 من سورة هود التي يفصح فيها عن عدم رغبته فيما ذهب إليه صاحب الوليمة، وهو بذلك يقيم علاقة تناصية مع سياق الآية المذكورة، حيث يتشابه الموقف والسياق بين وضع نبي الله لوط - عليه السلام -مع قومه الذين لم تكن لديهم رغبة في النساء بقدر ما أرادوا أن ينالوا من ضيفه من الرجال، حيث قالوا له: لقد علمتَ من قبلُ أنه ليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة، وإنك لتعلم ما نريد، أي لا نريد إلا الرجال.

فيما تستمد الوسائل الإقناعية العقلية قوتها من سرعة البديهة لدى الطفيلي الذي يجد نفسه مجبرا على اختراع حجة منطقية يقنع بها صاحب الوليمة من أجل السماح له بالدخول إلى بيته ومشاركته الطعام، ومن أمثلة ذلك الحوار الذي دار بين أشعب والكندي حول البخل والسخاء، حيث رد الكندي على أشعب حين سأله عن الفرق بين أن يكون الإنسان سخيا أو بخيلا وأيهما أفضل، فأجاب الكندي: «في قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه، وفي قولهم سخي إخبار عن خروج المال من ملكه. فالبخل اسم فيه ذم ولكن فيه حفظا، والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعا. والمال حقيقة ومنفعة وحيازته قوة، أمّا الحمد فهو ربح وسخرية، والاستماع له ضعف فماذا ينفع الحمد إذا جاع البطن وعري الجلد وضاع العيال وشمت الحساد؟»[11]

في هذه المقارنة بين السخاء والبخل يعمد الكندي إلى التمييز بينهما انطلاقا من البعد البراغماتي المحض، إذ – حسبه – ماذا سيفيد الحمد على السخاء إذا جاع البطن وعري الجلد وضاع العيال؟ كما أن البخل بالنسبة إليه يحمل دلالة التثبيت عكس السخاء الذي يحمل دلالة الزوال وخروج المال، فالبخل وإن كان فيه ذم لصاحبه ففيه بالمقابل حفاظا على المال من الضياع وبالمقابل في السخاء مدح لصاحبه إلا أن هذا المدح فيه تضييع للمال، هكذا هو البخل في عرف الكندي البخيل.

1. الآليات الحجاجية النقلية في نوادر المتطفلين

يستمد الطفيليون حججهم الإقناعية من العديد من المصادر النقلية غير أنّ أكثر هذه المصادر هي القرآن الكريم لما فيه من قوة في الإقناع وقدرة على التأثير في المتلقي الذي هو في عرف المتطفلين صاحب الوليمة والذي يقف حجر عثرة في سبيل تحقيق المتطفل لغايته، وعليه لا يستنكف هذا الأخير في توظيف الآيات القرآنية بالطريقة التي تحقق له أهدافه، حتى ولو أخرج دلالات هذه الآيات القرآنية عن سياقاتها ودلالاتها الأصلية، كل ذلك من أجل غاية واحدة وهي إقناع صاحب الوليمة والتأثير فيه.

ومن أمثلة الأدلة الحجاجية النقلية التي يتوسل بها الطفيلي لإقناع صاحب الوليمة، وبالتالي تحقيق غايته المتمثلة في تجاوز الحاجز الذي يمنعه من الوصول إلى الطعام، نجد توظيف القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وما تآلفت عليه العرب من المأثور من القول والحكمة والمثل.

أورد الخطيب البغدادي حوارا بين رجل وأبيه يعاتبه على اتخاذه التطفل صنعة مع ما تجلبه من مذلة: «حدثني محمد بن علي بن الحسن الجلاب، قال: قال رجل لأبيه: يا أبي أما تستحي من التطفيل؟ قال: وما أنكرت منه؟ فقد تطفل بنو إسرائيل وقالوا: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[12]

ففي تفسير هذه الآية قال البغوي: ﴿ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾، عِنْدَ ذَلِكَ، ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ ﴾، وَقِيلَ: إِنَّهُ اغْتَسَلَ وَلَبِسَ الْمُسُحَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَطَأْطَأَ رَأْسَهُ وَغَضَّ بَصَرَهُ وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، ﴿ تَكُونُ لَنا عِيدًا لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا ﴾، أَيْ: عَائِدَةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا حُجَّةً وَبُرْهَانًا، والعيد: يوم السرور، وسمّي به للعود من الفرح إِلَى الْفَرَحِ، وَهُوَ اسْمٌ لِمَا اعْتَدْتَهُ وَيَعُودُ إِلَيْكَ وَسُمِّيَ يَوْمُ الْفِطَرِ وَالْأَضْحَى عِيدًا لِأَنَّهُمَا يَعُودَانِ فِي كُلِّ سَنَةٍ، قَالَ السُّدِّيُّ: مَعْنَاهُ نَتَّخِذُ الْيَوْمَ الَّذِي أُنْزِلَتْ فِيهِ عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا، أَيْ: نُعَظِّمُهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعْدَنَا، وَقَالَ سُفْيَانُ: نُصَلِّي فِيهِ، قَوْلُهُ: لِأَوَّلِنا، أَيْ: لِأَهْلِ زَمَانِنَا وَآخِرِنَا، أَيْ: لِمَنْ يَجِيءُ بَعْدَنَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَأْكُلُ مِنْهَا آخِرُ النَّاسِ كَمَا أَكَلَ أَوَّلُهُمْ، ﴿ وَآيَةً مِنْكَ ﴾، دَلَالَةً وَحُجَّةً، ﴿ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾.[13]

ففي هـذا الحـوار الحجـاجي وجـد والـد الرجل في توظيف النص القـرآني ممثلا في الآية 114 من سورة المائدة آلية حجاجية جاهزة مثلما أطلق عليها أرسطو مصطلح الحجج الإقناعية غير الصناعية، إذ رد الوالد على ابنه الذي استغرب منه سلوك التطفيل، معتمدا على النص القرآني الذي يؤكد أنْ لا غرابة في ذلك طالما أنّ بني إسرائيل كانوا قد تطفلوا على نبي الله عيسى - عليه السلام - بأن طلبوا منه أن ينزل الله عليه مائدة من السماء. فاستجاب لهم نبي الله -عليه السلام - بأن دعا ربه أن ينزل على بني إسرائيل مائدة من السماء تكون عيدا لأولهم وآخرهم، وتتمثل حجة الطفيلي من خلال توظيف هذه الآية أن لا حرج في التطفيل طالما انّ نبي الله عيسى عليه السلام قد وافق بني إسرائيل ولم يستنكر طلبهم، إذ لو كان في طلبهم حرج أو ذلة ما طلبوا من نبيهم ذلك، وما استجاب لهم نبي الله ودعا لهم، وعليه لا حرج في أن يسلك هذا الوالد مسلك المتطفلين.

والأمر نفسه نجده فيما أورده ابن الجوزي عن حيلة الطفيلي بنان عندما اكترى سلما ووضعه على حائط صاحب الوليمة وأشرف على عيال الرجل وبناته، فكانت حجته مستمدة

من القرآن عندما ردّ على الشيخ قائلا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾[14] فضحك الرجل وقال له: انزل فكل. »[15] والتي سبق الحديث عنها.

حيث وقف صاحب الوليمة حائلا مانعا بين الطفيلي بنان وغايته، ويمنعه من الدخول، فلجأ الطفيلي إلى عملية حجاجية تقوم على السخرية عبر توظيف نص قرآني يتمثل في الآية 79 من سورة هود من أجل تحويل انتباه المقصود بالمحاججة (صاحب الوليمة) إذ عمد بنان إلى اكتراء سلم وتسور جدار بيت المعني، وعندما أدرك الرجل ذلك صاح به: أما تخاف الله في أهلي وبناتي، فكان رد الطفيلي استحضار قوله عز وجل في سورة هود: "لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ" وهو نص مستمد من سياق آخر مختلف تماما عن سياق الحال ولكن طالما انه يخدم مقصدية القائم بالحجاج فلا ضير في توظيفه، فورد في تفسير هذه الآية القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾.

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال قوم لوط للوط: لقد علمت (يا لوط) ما لنا في بناتك من حق (لأنهن لَسْنَ لنا أزواجًا، كما حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق(أي من أزواج) وإنك لتعلم ما نريد. وقوله: وإنك لتعلم ما نريد يقول: قالوا: وإنك يا لوط لتعلم أنَّ حاجتنا في غير بناتك، وأن الذي نُريد هو ما تنهانَا عنه.

فرغم أنّ سياق الآية المذكورة سابقا يتحدث عن قوم لوط الذين أثروا الرجس على الطهر، إلا أنّ الطفيلي بنان استحضرها في سياق آخر تماما، ووظفها بطريقة ماكرة وذكية جعلت صاحب الوليمة يذعن ويطلب منه النزول للأكل.

2. الأليات الحجاجية العقلية في نوادر المتطفلين

تعددت الآليات الحجاجية ذات الطابع العقلي لدى الطفيليين انطلاقا من حاجتهم الماسة للوصول إلى غايتهم وهي إقناع صاحب الوليمة بقبولهم ودحض جميع حججه التي يضعها حائلا بينهم وبين تحقيق أهدافهم، ومن أبرز هذه الحجج نجد:

أ. حجة التعدية

تمثل حجة التعدية ركنا أساسيا في الحجاج الذي يقوم على المنطق، أو البنى العقلية المنطقية، وهي تقوم على معادلة بسيطة قوامها أنه أذا كان " أ " له علاقة مع " ب" و "ب" له علاقة مع "ج" فإنه من المنطقي أن تكون هناك علاقة بين " أ " و "ج ".

وأوردت سامية الدريدي في هذا السياق بعض النماذج الدالة على الحجج العقلية شبه المنطقية في سياق بحثها عن الحجاج في الشعر العربي القديم، معتبرة أنّ الحجج التي تعتمد على علاقة التعدية هي حجج تعتمد قواعد رياضية تشكّل خلفيتها العميقة ونسيجها الداخلي، بل تؤسس طاقتها الحجاجية، وتعد معينها الإقناعي، وأساس هذه الحجة وجوهرها المعادلة التالية: أx ب ـ بx ج أx ج [16]

وأعطت نموذجا لذلك في قول متمم بن نويرة:[17]

لقد لامني عند القبورِ على البُكا* رفيقي لِتَذْرافِ الدموعِ السّوافِكِ**

فقال:أتبكي كلَّ قبرٍرأيتَه؟ * لِقبرٍثَوَى بين اللِّوى فالدَّكادِكِ**

فقلتُ له:إنّ الشَّجا يَبعثُ الشجا* فدَعْني، فهذا كلُّه قبرُمالكِ**

رأت سامية الدريدي أنّ حجة الشاعر متمم قامت على التعدية، حيث ماثل الشاعر بين قبر أخيه مالك وكل القبور لذلك بكاها جميعا لأن الحزن الذي خلفه فقد أخيه في نفسه تحرك في وجدانه كلما رأى قبرا أمامه لذلك أخبر من يلومه على البكاء بأن كل هذا قبر مالك، أي بالاعتماد على حجة التعدية، فإذا كان كل قبر يراه يشبه قبر أخيه، وقبر أخيه يحمله على البكاء، فالمنطقي أن يبكي كل قبر يراه.

ورسمت سامية الدردي لذلك هذه الخطاطة:

رؤية القبور تذكره مالك ــ قبر مالك يثير حزنه ويبكيه ـ رؤية القبور تثير حزنه وتبكيه.

ومن النماذج التي تقوم على حجة التعدية في نوادر المتطفلين: « روى محمد بن علي الجلاب قال: جاء طفيلي إلى عرس، فمنع من الدخول، وكان يعرف أخا للعروس غائب، فذهب فأخذ ورقة كاغد وطواها وسحاها وختمها، وليس في بطنها شيء، وجعل العنوان (من الاخ إلى العروس) وجاء فقال: معي كتاب من أخي العروس إليها، فأذن له فدخل، ودفع إليهم الكتاب، فقالوا: ما رأينا مثل هذا العنوان أبدا، ليس عليه اسم أحد، فقال: وأعجب من هذا أنه ليس في بطن الكتاب ولا حرف واحد، لأنه كان مستعجلا، فضحكوا منه لأنهم علموا أنّه احتال لدخوله فقبلوه. » [18]

ففي هذا النموذج يعمد الطفيلي إلى توظيف حجّة التعدية عبر اختراع حيلة ذكية تتمثل في كتاب رسالة دون محتوى مدعيا أنها من أخ العروس، كما لا يوجد بها عنوان المرسل ولا أيّ شيء يجعل منها رسالة عادية كتلك المتعارف عليها، وهو ما دفع أهل العروس إلى اكتشاف الحيلة، وبالتالي دفعهم إلى الضحك والسماح له بالدخول ومشاركتهم الطعام.

فالعلاقة شبه المنطقية التي تتأسس عليها هذه الحيلة تقوم على ثلاثة أطراف وهي:

أهل العروس + شقيق العروس + الطفيلي.

حيث يمثل الطفيلي الطرف المحاجج الساعي لإقناع الطرف المحاجج له الذي يمثله أهل العروس، ويقابل طلبه بالرفض، فيعمد إلى توظيف صورة شقيق العروس الغائب عن مسرح الأحداث، وهو الذي يمثل تأشيرة الدخول بالنسبة للطفيلي، حيث تكون علاقة التعدية في هذا النموذج على النحو التالي:

شقيق العروس مرحب به .

من يعرف شقيق العروس مرحب به أيضا.

الطفيلي يعرف شقيق العروس وجاء برسالة منه.

إذا الطفيلي مرحب به أيضا.

ومن هنا تتجلى قدرة الطفيلي على إقناع أهل العروس بالسماح له بالدخول ومشاركتهم طعام العرس.

ب. الحجج القائمة على الاحتمال

تقوم هذه الحجة على أن الأمر لا يمكن أن يكون مطلقا في غالب الأحيان، بل يكون بين الفينـة والأخـرى خاضعـا لمبـدأ احتماليـة الوقـوع من عدمه، ولذلك يلجأ المحاجج إلى بناء قوته الإقناعية على مبدأ الاحتمال الذي يعد من الحجج شبه المنطقية القائمة على العلاقات الرياضية شأنه في ذلك شأن حجة التعدية، تقول سامية الدريدي: «هذا النوع من الحجج يؤسس على حظوظ المرء في تحقيق أمر ما أو إنجاز حدث معين، أو اتخاذ موقف محدد وخلفيته واضحة، إنها الإيمان بأنّ المطلق نادر وأنّ الأمر لا يعدو أن يكون في أغلب الحالات محتملا» (19)

ومن النماذج التي تعكس قدرة الطفيلي على توظيف حجة الاحتمال من أجل إقناع شخص المعارض وهو في هذا السياق من يحول بين الطفيلي ومائدة الطعام، نجد سعي

الطفيلي لبث الشك في نفس القائم بفعل المنع عبر دفعه إلى الرضوخ لغاية الطفيلي، وفتح الباب له عبر حجّة الاحتمال، فقد أورد الخطيب البغدادي في كتاب التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم أنّ: « بنان مر بعرس فأراد الدخول، فلم يقدر، فذهب إلى بقال، فوضع خاتمه عنده على عشرة أقداح علاكية [20] وجاء إلى باب العرس، فقال: يا بواب، افتح لي. فقال له البواب: من أنت؟ قال: أراك ليس تعرفني. أنا الذي بعثوني أشتري لهم الأقداح. ففتح له فدخل، فأكل وشرب مع القوم، فلمّا فرغ أخذ الأقداح ونادى البواب: افتح لي، يريدون ناصحية[21] حتى أرد هذه، فخرج، فردها على البقال وأخذ خاتمه.» [22]

ففي هذه النادرة من نوادر الطفيلي يعمد إلى الحيلة عبر حجة الاحتمال تجاه البواب الذي يمنعه أول مرة من الدخول على القوم، فيلجأ بنان إلى حيلة بث الشك " حجة الاحتمال" في نفسية المتلقي (البواب) الذي سرعان ما يغير موقفه من الطفيلي حينما يلجأ إلى اكتراء بعض الأقداح العلاكية من بقال مجاور مدعيا أنّه تم تكليفه من القوم بذلك، فيسمح له البواب بالدخول، ليقاسم القوم طعامهم، وما إن ينهي الطعام حتى ينادي على البواب للسماح له بالخروج لاستبدال الأقداح العلاكية بأقداح ناصحية أي من عسل مصفى، ما يجعله يخرج سالما غانما وقد حقق غايته في التغلب على سلطة المنع التي يمثلها البواب عبر حجة جعل البواب يدخل في مرحلة من الشك والاحتمال على اعتبار أنّه دفعه من الرفض المطلق إلى السماح له بالولوج وفتح الأبواب.

خاتمـــة

يمثل الخطاب الحجاجي في نوادر المتطفلين صورة حية لذلك الخطاب الذي يعمد واضعوه إلى حشده بمختلف الآليات التي من شأنها أن تحقق للطفيلي غايته المتمثلة في التخلص من سلطة المنع والرفض التي يمثلها البواب الذي يدفع الطفيلي إلى إعمال عقله لإقناعه بالسماح له بالدخول، ومن هنا تنوعت الآليات الحجاجية التي وظفها العديد من الطفيليين في سبيل إقناع البوابين بتحقيق رغباتهم، وانطلاقا من دراستنا للآليات الحجاجية في نوادر المتطفلين خلصنا إلى النتائج التالية:

- تعجّ نوادر المتطفلين بالعديد من الآليات والوسائل الإقناعية التي يوظفونها من أجل إقناع سلطة المنع المتمثلة في البواب بالسماح لهم بالولوج ومشاركة أهل الوليمة طعامهم.

- وظّف الطفيليون في نوادرهم العديد من الآليات النقلية التي تقوم على التناص مع النص الديني أو النص الأدبي، حيث يعمد الطفيلي في توظيف آيات القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو النصوص الشعرية والأمثال والحكم العربية القديمة من أجل إقناع المتلقي ممثلا في البواب بالسماح لهم بالدخول.
- لم يكتف الطفيليون بالوسائل النقلية التي وظفوها بل تعدوا ذلك إلى توظيف العديد من الآليات العقلية والحجج المنطقية وشبه المنطقية التي يرومون من خلالها تحقيق غايتهم الأولى والأخيرة وهي إشباع حاجتهم للطعام كيفما اتفق.
- يتصف العديد من الطفيلين بالذكاء الخارق وسرعة البديهة والقدرة العجيبة على الخروج من المواقف الصعبة بأخف الأضرار على غرار ذلك الطفيلي الذي حول وجهة نظر صاحب الوليمة والقائم بفعل المنع من الرفض إلى القبول بعدما حاججه بعجم حاجته إلى رؤية بناته مرتكزا على رد قوم لوط على نبيهم بطريقة فيها الكثير من المكر والدهاء.

ختاما تعد نوادر الطفيليين فضاء خصبا للدراسة التداولية لما فيها من خصائص تجعل منها خطابا تداوليا بامتياز، وعليه نوصي بضرورة مقاربتها تداوليا لكشف العديد من الأبعاد التداولية التي تحتوي عليها، حيث يمكن للباحث أن يدرسها من زوايا تداولية أخرى نحو الأبعاد التداولية الأسلوبية في نوادر المتطفلين عبر الكشف عن تجليات الاستعارة الحجاجية فيها أو التشبيه باعتباره آلية حجاجية أسلوبية.

قائمـة المصادر والمراجـع

[1] أبو إسحاق الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب ج4، تحقيق: زكي مبارك، المطبعة الرحمانية، القاهرة، مصر، دت.

[2] أبو بكر العزاوي، (2006)، اللغة والحجاج، دار العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب.

[3] توفيق الحكيم، (1990)، أشعب ملك الطفيليين، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر.

[4] ابن الجوزي، (2003)، أخبار الأذكياء، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم/ الجفان والجابي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

[5] الخطيب البغدادي، (د ت)، التطفيل وحكايات المتطفلين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم، تحقيق عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم والجفان الجابي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

[6] ابن منظور، (1992)، لسان العرب، ج3، دار صادر، بيروت، لبنان.

[7] سامية الدريدي، (2011)، الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.

[8] أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، (1989)، تفسير البغوي "معالم التنزيل"، تحقيق: محمد عبد العزيز النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، مج 3، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية.

[9] مالك ومتمم ابنا نويرة، (1968)، الديوان، تحقيق: ابتسام مرهون الصفار، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق

التهميش والاقتباس

([1])- ابن منظور،(1992)، لسان العرب، ج3، تحقيق: عبد الله علي الكبير و آخرون، دار صادر، بيروت، ط 5، ص 228.

([2])- المرجع نفسه، ص ن.

(3)- العزاوي أبو بكر، (2006)، اللغة و الحجاج ، دار العمدة في الطبع ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 3 ، ص 15

([4])- ابن منظور، لسان العرب، ج 5، مادة (ط ف ل).

([5]) - البغدادي الخطيب ، (2003)، التطفيل وحكايات المتطفلين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم، تحقيق عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم والجفان الجابي للنشر والتوزيع، د ت ص 46.

وينظر ابن الجوزي، أخبار الأذكياء، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم/ الجفان والجابي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، ص 238.

([6]) - المرجع نفسه، ص4

(7)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(8)- الحصري القيرواني أبو اسحاق (د ت)، زهر الآداب وثمر الألباب ج4، تحقيق: زكي مبارك، المطبعة الرحمانية، القاهرة، مصر، ص52

([9])- ابن الجوزي، (2003)، أخبار الأذكياء، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، الجفان والجابي للنشر والتوزيع ودار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، ص239.

(10)- هود: 79

([11]) - توفيق الحكيم،(1990)، أشعب ملك الطفيليين، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، ص 23

([12])- المائدة: 114

([13]) - البغوي أبي محمد الحسين بن مسعود ،(1989)، تفسير البغوي "معالم التنزيل"، تحقيق: محمد عبد العزيز النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، مج 3، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، ص117

([14])- هود : 79

([15])- ابن الجوزي، أخبار الأذكياء، ص239.

([16]) - سامية الدريدي، (2011)، الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ص 203

([17]) - مالك ومتمم ابنا نويرة، (1968)، الديوان، تحقيق: ابتسام مرهون الصفار، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، ص225

(18) - الخطيب البغدادي، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم، ص 118

([19]) - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بينيته وأساليبه، 2011، ص213

(20) - أقداح علاكية: بها نوع من العسل يمضغ.

(21) - ناصحية: عسلا خالصا.

(22) - الخطيب البغدادي، التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم، ص 116.